

السياسة اللغوية فى زمن العولمة

المصطفى تاج الدين (*)

١- اللغة والهوية :

يرى علماء اللسانيات ان اللغة والهوية شئ واحد ^(١) ، والمقصود بالهوية هنا هوية هوية الفرد وهوية المجتمع، ولهذا يمكن تأسيس الكيانات الإجتماعية والسياسية على أساس لغوى، ومن هنا تأتى خطورة المكون اللغوى فى تحقيق أو زعزعة الاستقرار السياسى للمجتمعات ^(٢) ولقد كانت اللغة عاملاً حاسماً فى التمييز بين العدو الصديق حين الحروب.

ولعل من أكبر المشاكل السياسية فى العالم المعاصر تلك المتعلقة بالصراع العرقى، والذى لا يبعد كثيرا عن المسألة اللغوية حيث يحصل فى المخيال الجمعى للأمة خطر بين العرق والوحدة اللغوية. ونحن متفقون مع العالم اللغوى فيشمان بأن مشكلة العلوم الإنسانية ومنها اللسانيات هى فى اقتراض واستعمال مصطلحات نشأت فى سياقات عامية او سياسية او قل جمهورية بالمعنى الفلسفى دون ان تخضع لدراسة أكاديمية متخصصة ومن هذه المصطلحات العرق والقومية والشعب والجنسية ^(٣).

إن مسألة إنقراض اللغات لا يعنى ذهاب جهاز إتصالي، وإنما يعنى إنقراض أمة وضياع ثقافة، ولهذا السبب نلاحظ انبعاثاً كبيراً للهويات اللغوية، حيث محاولات كثيرة

(*) . رئيس وحدة اللغة العربية، جامعة ظفار، صلالة، سلطنة عمان.

(1). Andree Tbouret Keller , Language and Identity : the handbook of sociolinguistics Blackwell publishers 1997 , Oxford UK ,p315

(2) Ronald Waedhaaugh , Language in Competition : Dominance , Diversity and Decline , 1987 Basil Blacwell p39

(3). Jushua A.Fishman , Language and Ethnicity the View from within in ibid 327

وشجاعة لمواجهة تحدى الواحدة اللغوية التى تبشر بها العولمة والتى لا تعنى هيمنة اللغات الغالبة وإنما تعنى فى النهاية هيمنة النموذج الثقافى المختزن فى رموز الإتصال. فاللغة البيلاروسية تريد العودة إلى الحياة بعد ان كادت ظروف العصر تخرجها من عالم التداول، واللغة الكورية التى واجهت ضربات اللغة الصينية ورفسات اليابانية لن تستسلم للهيمنة الناعمة للغات الأوروبية ن كما أن هناك إحساسا فى العالم العربى بضرورة حماية العربية إلى جانب جهود الأكراد والأمازيغ والأترك فى العمل من أجل حماية لغاتهم وتقوية نفوذها.

ومن المفارقات الهائلة فى صلة اللغة بالهوية أن لغة كالعربية والتى تعاني فى اوطانها من قلة الإهتمام، حيث تشير بعض الدراسات إلى عزوف عام لدى الشباب العرب عن متابعة دراساتهم الجامعية فى تخصص لصيق باللغة، تعد لغة مهمة وأساسية لدى العرب داخل حدود ١٩٤٨، حيث نجد إقبالا كبيرا على حصص العربية، والسبب أنها هنا تعد عنوانا على بقاء الهوية المستمرة وإستمرار الجماعة اللغوية فى الوجود (١).

٢- الجماعة اللغوية :

السياسة فى أصل التداول العربى تدور حول معانى الرعاية والمصلحة، وتفيد فى الأصلاح القيام بـسؤولية الإدارة والرعاية للجماعة السياسية بما يجلب لها المصالح ويدراً عنها المفساد، وحينما تقتزن السياسة باللغة فأنها تعنى حسب إلجين : " المواقف الرسمية التى تتخذها الحكومات تجاه إستعمال اللغة ورعايتها، سواء كانت المواقف مدعومة بالفعل كإقرار او تمويل البرامج، أو كانت مدعومة بالخطب والقرارات المنمقة على الورق " (٢).

(1). Eliezer Ben Rafael , d social division , a case study of Israel , 1994 , Calarendon Press , Oxford. p 210

(1). Suzette Haden Elgin , the language imperative , 2000, Perseus Publishing, Cambridge, p25

وإذن فإن السياسة اللغوية هي عبارة عن نوع التعامل الرسمية لأجهزة الدولة مع اللغة أو اللغات المستعملة داخل كيان سياسى معين وهو الدولة. فاعتبار العربية لغة رسمية فى الجزائر أو العراق مع عدم منح اللغتين الأمازيغية والكردية المرتبة نفسها يدخل فى إطار السياسة اللغوية، كما ان اعتماد الملاوية من قبل الحكومة الماليزية لغة رسمية للبلاد مع السماح للمكونات الأخرى بإستعمال لغاتها فى مدارسها الخاصة يعد من قبيل السياسة اللغوية. ولعلنا نذهب إلى إنه ليس من الضرورى أن تكون السياسة اللغوية منصوص عليها فى القانون حتى تعد سياسة لغوية بل يكفى العرف المتداول فى دولة ما لتحديد نوع السياسة المتبعة. وحسب دينيس أجير^(٢)، فإن ثمة أنواع من السياسات اللغوية :

٢- نوع يركز فى تصوره وأهدافه على ضرورة الوحدة الوطنية والوفاق الإجتماعى، ولأجل تحقيق هذا يتم التركيز على لغة واحدة لتصبح هى اللغة الرسمية وما عداها تبقى على هامش التداول، وعادة ماتقوم هذه السياسة على قيم مثالية كالوطنية والقومية، وفى سبيل تحقيق هذين الهدفين يتم قهر اللغات الأخرى والسعى إلى مواجهة إنبعاثها، والأکید على ضرورة حماية اللغة من العدو سواء كان حقيقاً أم متخيلاً.

٣- نوع يتميز بإعتماد تصور أرحب لمفهوم الوفاق الإجتماعى حيث الاعتقاد بأن قوة المجتمع فى تنوعه وفيسفاسائيته، إلا أن مثل هذا التصور يبقى عادة معلقاً فى سماء النظرية، حيث تبقى المنافسة بين الكيانات اللغوية فى المجتمع على أشدها، وهنا تتحول السياسة اللغوية إلى فلسفة يتم إعمالها لتحقيق التوازن بين الجماعات اللغوية المتنازعة.

(2). Dennis Ager , Motivation in language planning and language policy, 2001, Multilingual Matters ltd, pp 177-178

٣- الصياغة اللغوية من منظور تاريخي :

حينما ذهب اليونانيون إلى غير المتكلمون باليونانية برابرة ومتوحشون^(١) فإن هذا يكن إعتباره شكلا ما من أشكال السياسة اللغوية القائمة على بعد تداولي أصيل في الثقافات الإنسانية وهو بعد التفضيل، بحيث تتمحور بعض الثقافات حول ذاتها وتلحق جميع الكمالات بها وتكيل النقائص لغيرها، وكذلك نظر السريان والعبرانيون للغاتهم علة إنها أفضل اللغات وإن المتكلم بها أفضل ممن يقصر باعه عن إستعمالها، ولقد أدخلنا هذه المواقف في إطار السياسة اللغوية أولا لأن لالمواقف اللغوية تؤثر بشكل بالغ في السياسات اللغوية^(٢). وثانياً لما ينتج عنها من نزوعات للهيمنة السياسية واللغوية على الشعوب الناطقة بغير لغة الأقوياء والذين ينظر لهم عادة على أنهم أقل إنسانية وأقرب إلى البهائم منهم للإنسان. ولم يخل التاريخ الإسلامي من هذا التصور وإن لم يصل إلى مستوى تجريد الأعاجم من إنسانيتهم بفعل قيم الإسلام السمحة.

وفى التاريخ الأوروبى يصعب تحديد متى بدأ الوعى بضرورة وضع سياسات لغوية واضحة للعالم، غير ان الصراع اللغوى ظل من اهم مجالات الصراع بين القوميات الأوروبية. ففي وقت هيمنة النورمانديين على السلطة فى بريطانيا حدث نوع من التخطيط لى تهيم اللغة الفرنسية على الإنجليزية، فى إطار سياسة إستعمارية واضحة لتنافس من خلالها الفرنسية اللغات المحلية وعلى رأسها الإنجليزية^(٣).

(1). Ibid.

(2). Herbert Chirst, Language attitudes and educational policy , in Encyclopedia of language and education VI on language policy and political issues in education , edited by Wodak and David Corson , Kluwer Academic Publishers , 1997 pl.

(3). Language in competition, p 67.

(1). Ibid p68

(2). Ibid p 68.

وهكذا أصبحت الفرنسية وهى لغة الأقلية لغة النخبة المستعملة فى المحاكم والمحافل الرسمية والدينية والإدارات وعلى الرغم من بقاء الأغلبية من السكان على لغتهم الأم، إلا أن السياسة للدولة قد قضت بهيمنة الفرنسية على مجال التواصل الرسمى. وفيما بعد حدث نوع من التوازن بين اللغات المختلفة فى بريطانيا حيث هيمنت الفرنسية على لغة المحاكم والقانون، وبقت اللاتينية لغة العلم والدين، بينما كانت الإنجليزية هى اللغة الدارجة بين عامة الناس، وكان ينظر لها على أنها لغة لا تصلح للكتابة والتوثيق^(١).

غير أن التاريخ كان يسير فى صالح اللغة الإنجليزية والتى وبعد ضم نورماندى إلى فرنسا كان لابد للطبقة النورماندية فى بريطانيا إما تعود إلى فرنسا أو أن تبقى لتتقيد بعد ذلك الجاه والسلطة فى المجتمع الجديد. ويعد هذه المرحلة تم إعتقاد اللغة الإنجليزية لغة رسمية مع إبقاء الفرنسية لغة مهمة تدل على سعة ثقافة متكلميها وتحضره لأن اللغة الفرنسية فى القرن الثالث عشر كانت لغة الثقافة والحضارة إلى درجة كانت تتنافس فيها اللاتينية ذاتها^(٢).

هكذا أصدر الملك إدوارد الثالث مرسوما أقره البرلمان بإعتماد اللغة الإنجليزية لغة المحاكم والوثائق القانونية، غير أن هذا لم يكن من السهل تطبيقه إذ لم تستطع الإنجليزية فرض نفسها فى المجال القانونى والقضائى بصفة كاملة إلا فى القرن الثامن عشر ومن هنا يمكن فهم التأثير الكبير للغة الفرنسية على اللغة الإنجليزية فى مجال الإصطلاحات القانونية

٤- التحد واللغوى :

من الصعب أن نجد دولة أو مجتمعا يتحدث بلغة واحدة، فالتعدد اللغوى أمر واقع، وعلى كل سياسة لغوية رشيدة ان تعمل على تأكيده بدل محاربته. فموت اللغة خسارة

لا يمكن أن تعوض^(١)، والذين يعملون، والذين يعملون من أجل القضاء على اللغات الأخرى مهما كان الدافع دينيا أو قوميا لا يعرفون قيمة التعدد في اللسان، والذاكرة التاريخية المختزنة في رموز اللغة. ولعل لا أخطئ إذا نظرت إلى لغات الناس على أنها آثار شاهدة على تاريخ ومعالم لو درست بعق لتحدثت بقصص فيها عبر لمن القى السمع وهو شهيد، وليس من الغريب أن يشهد هذا العصر الحاضر وهو عصر الأمبريالية والعولمة أكبر عملية لموت اللغات وانقراضها فالامر يتعلق بمذبحة حقيقية إن لم نسع لإيقافها لضاع خير كثير. لقد تخيل اللساني دافيد كريستال الزمن الذي ستهيمن فيه الإنجليزية في العالم أجمع، وتتحول فيه إلى اللغة الوحيدة للتواصل، واستنتج بأن هذا سيكون أكبر كارثة عرفت البشرية عبر التاريخ^(٢).

ولعل الإسلام قد أكد على قيمة التعددية اللغوية حينما ربط القرآن الكريم بين اختلاف الألسنة ومعرفة إعجاز الله في الخلق، فهذا الاختلاف إيه من آيات الله وليس هناك مبرر علمي ولا خلقى لتفضيل لغة على لغة. يقول ابن حزم في الأحكام: "ولا ندرى أي لغة هي التي وقف آدم عليها أولا، إلا أننا نقطع على أنها أتم اللغات كلها... وقد قال قوم هي السريانية وقال قوم هي اليونانية وقال قوم هي العربية والله أعلم، إلا أن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أن السريانية والعبرانية والعربية هي لغة مضر وربيع لا لغة حمير، لغة واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها... وإذا تيقنا ذلك فإسريانية أصل للعربية وللعبرانية معا، والمستفيض أن أول من تكلم بهذه العربية اسماعيل عليه السلام

(١). هي الفكرة نفسها التي أجمع عليها اللسانيون في المؤتمر الدولي للسانيات بإقليم كيبك حيث ألحوا على اليونسكو بأن تمول مشاريع لحماية اللغات المهددة بالانقراض عن طريق تصنيف قواميس لها، وكتابة أنحائها، وتقيد نصوصها راجع :

(David Crystal, Language Death , 2000 , Cambridge , p v ii)

(٢). الإحكام في أصول الأحكام، ج ١/٥٥-٥٦

فهى لغة ولده والعبرانية لغة اسحاق وهى لغة ولده، والسريانية بلا شك هى لغة ابراهيم صلى الله عليه وعلى نبينا وسلم" (١)، وذهب رحمة الله مذهباً تجاوز به تلك الانظار الطفولية للغات والتي كانت سائدة قبله وفى عصره، معبراً عن الأفق الرحب الذى وصل اليه الفكر التعددى فى الأندلس خصوصاً وفى الحضارة الإسلامية عموماً، يقول: "وقد قال قوم ان اليونانية ابسط اللغات، ولعل هذا إنما هو الآن فان اللغة يسقط أكثرها، ويبطل بسقوط دولة أهلها ودخول غيرهم عليهم فى مساكنهم أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم فانما يقيد لغة الأمة وعلومها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغهم" (٢)، فالتفاضل بين اللغات لذاتها غير موجود ولا معقول، وقد يحصل التفاضل من جهات خارجية عن اللغة كقوة المتكلم ونشاطه وتشجيعه للغته وابداعه بها، ولهذا فتفضيل لغة على لغة بدون سبب خارجى وهم من الاوهام عند ابن حزم فقد "توهم قوم فى لغتهم انها افضل اللغات وهذا لا معنى له لان وجوه الفضل معروفة، وانما هى بعمل أو اختصاص ولا عمل للغة، ولا جاء نص فى تفضيل لغة على لغة وقد قال تعالى" وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم"... وقد غلط فى ذلك جالينوس فقال: إن لغة اليونانيين افضل اللغات لأن سائر اللغات انما تشبه إما نباح الكلاب أو نقيق الضفادع، قال على: وهذا جهل شديد لأن كل سامع لغة ليست لغته ولا يفهمها فهى عنده فى النصاب الذى ذكره جالينوس ولا فرق.

وقد قال قوم العربية افضل اللغات لان بها كلام الله تعالى، قال على وهذا لا معنى له... فبكل لغة قد نزل كلام الله تعالى ووحيه، وقد انزل التوراه والانجيل والزبور،

(١). الإحكام ج ١ / ٥٦ - ٥٧

(٢). الإحكام فى أصول الأحكام ج ١/٥٥-٥٦

وكلم موسى عليه السلام بالعبرانية وانزل الصحف على ابراهيم عليه السلام بالسريانية فتساوت اللغات فى هذا تساويا واحداً^(١).

ويضيف رحمة الله فى الرد على من قال أن اللغة العربية لغة أهل الجنة " وأما لغة أهل الجنة وأهل النار فلا علم عندنا إلا ما جاء فى النص والاجماع ولا نص ولا اجماع فى ذلك... وقد ادعى بعضهم أن اللغة العربية هى لغتهم واحتج بقول الله تعالى: ﴿وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين﴾ فقلت له: فقل انها لغة أهل النار لقوله تعالى عنهم انهم قالوا: ﴿سواء علينا اجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص...﴾ ولأنهم قالوا: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير...﴾ وقد أدى هذا الوسواس العامى اليهود إلى ان استجازوا الكذب والحلف على الباطل غير العبرانية، وادعوا ان الملائكة الذين يرفعون الاعمال لا يفهمون إلا العبرانية فلا يكتبون عليهم غيرها^(٢).

٥- الحقوق اللغوية:

اللغة مكون أساسى من مكونات الهوية، ولذلك يجب الحفاظ عليها ورعايتها وتطويرها تحقيقاً لمقصود الله من الاختلاف فى الالوان والالسنه. وتشير الاحصاءات الى ان ما يقرب من نصف اللغات فى العالم مهددة بالانقراض، ولعل التنوع اللغوى شبيه الى احد ما بتنوع الماكل والمشارب، ولعلنا نصاب باجزع عندما نعرف مثلاً اننا سناكل طعاماً ما لمدة اسبوع، كما اننا سنصاب حتماً بالاكنتاب اذا كنا نتنزه فى بستان مملوء بشجرة من نوع واحد. ومع ذلك فاننا لا نصاب بمثل هذا الجزع حينما نسامح فى القضاء على لغات عديدة بالادعاء العامى والساذج بان لغتنا افضل اللغات أو أن اللغة الواحدة تعنى الوطن الواحد.

(١) الإحكام ج ١ / ٥٨

(٢) الإحكام ج ١ / ٥٩

٦- موت اللغة في زمن العولمة.

يرى بعض علماء اللغة ان اللغة تموت كما يموت الإنسان، فهي تحيا مادام بها التواصل جاريا، ولعل ابن حزم كان محقا حينما ربط انقراض اللغات بفقدان السلطان. إلا أن هذه الفكرة وان صحت فيها مجال التنافس والصراع فانها لا تصح ولا ينبغي ان تصح فى المجال الإنساني الرحب مجال حقوق الإنسان فى بقاء تراثه وتاريخه. والعولمة بها هى مزج من القمر النفسى والرمزى والعسكرى والاقتصادى على اتباع النموذج المتفوق حضاريا تعبر عن فقر النموذج ذاته، وتشير الى ضعف عام فى الاحساس بجماليات الاختلاف. غير ان العولمة فى اعتقادنا ليست سوى ظاهرة موضوعية املتها الظروف الاقتصادية والتطور الرهيب فى مجال الاعلاميات، اى ان العولمة ليست فلسفة او ايدولوجيا حتى نقف منها موقف الرفض السطحى. فالظواهر الموضوعية هى فى حد ذاتها تخضع للارادة الإنسانية، اى ان ارادتنا يمكن ان تحول الظواهر كالعولمة مثلا الى حيث تخدم الناس وتقودهم الى مزيد من الرفاهية والاشباع. فالمحافظة على اللغات وحمايتها ينبغي ان تتحول الى استراتيجية عالمية تستفيد من انجازات العولمة على صعيدين:

١- صعيد التقنيات الاعلامية المتطورة.

٢- صعيد عولمة قيم حماية حقوق الإنسان ومنها الحقوق اللغوية.

والمقصود بموت اللغة ان يتوقف استعمالها. وينعدم من يتواصل بها حتى وان بقيت محفوظة لى الكتب او مسجلة على الاشرطة وتشير الاحصائيات الاكثر دقة الى ان عدد اللغات الحية الموجودة فى العالم اليوم يتراوح ما بين ٦٠٠٠ و٧٠٠٠ لغة^(١). وان كثيرا من اللغات فى الشرق والغرب قد انقرضت فعلا بوفاة اخر من يتكلم بها، كما ان لغات اخرى فى طريقها الى ذلك اذا لم نعمل شئ لحمايتها.

(١). راجع فى هذا : Language Death p3

٧- دور المعلمين في حماية اللغة :

من الواضح ان المسلمين غائبون تماما في الجهود المبذولة لحماية التراث الإنساني ولعل اليونسكو وهى منظمة غربية الفلسفة والنشأة تقوم بجهود مشكورة فى هذا المجال. والعجيب ان الغرب وهو منشأ الاستعمار والعولمة هو ايضا منشأ الجمعيات والمؤسسات العاملة فى مجال حماية اللغات.

ومن المفارقات ان المؤسسات البحثية فى الغرب، وبتمويل غربى، واحيانا حكومى، تعمل جادة لحماية بعض اللغات الإسلامية الائلة للانقراض، والتي ربما لم يسمع بوجودها مسلم بله العمل على حمايتها. ومن امثلة ذلك لغة الاجمت وهى لغة المسلمين بالاندلس بعد ان هيمن عليها المسيحيون. وهذه اللغة عبارة عن لغة عربية مسبوكة فى قلب نحوى وصرفى اسبانى. وتفسير ظاهرة ازدواجية القيم فى الغرب راجع الى الطبيعة العصرية للعالم الغربى والذى لم يعد غربا واحدا كما نتخلله. ان صورة الغرب المسيحى ينبغى ان تطوى فى دوايب التاريخ، فالغرب اليوم عبارة ان خليط من المذاهب والروى المتعارضة والمؤسسات المتشعبة، فليست هناك رؤية واحدة للعالم يمكن ان نطلق عليها الروى الغربية، كما لم يعد هناك اطار نظرى واحد يلم شتات الفلسفات الرائجة فى الغرب. وعليه فان الادعاء بان الغرب يريد القضاء على الخصوصيات الثقافية عن طريق العولمة يوازى فى خلطه التعميمى الادعاء المقابل بأن الغرب يريد نشر الديمقراطية. والسؤال المطروح هنا هو اين المسلمون واين المؤسسات الإسلامية فى مجال حماية التراث الإنسانى؟ يبدو ان هذا الغياب يمكن تفسيره من الناحية السوسيونفسية وهو ان الحضارات الضعيفة عادة ما تنكفىء على نفسها معتقدة انها الوحيدة المهددة، هكا فان المسلمين اليوم مهتمون اكثر بشؤونهم الداخلية، ولا يرون فائدة فى دعم الابحاث المتعلقة بحماية تراث الاخرين. وكيف يحمى المسلمون تراث الإنسانية وتراثهم يعانى من تقصيرهم فى العناية به؟

٨- المصاحبة اللغوية في العالم الاسلامي، الحالة على بعض النماذج:

حينما نتحدث عن العالم الاسلامي في مجال السياسات اللغوية فاننا نقصد تلك الدول الإسلامية التي تعاني من وجود صراع طائفي ذي نزوع لغوي، ولن نتحدث هنا عن الدول ذات التعددية اللغوية المتعايشة.

ولعل الباحث مضطر الى الاقتصار على بعض النماذج التي تتوفر حولها معطيات كافية الخلق تصور متوازن عنها. ويمكن تعميم بعض نتائج هذه الورقة على دول لم نتحدث عنها مع اخذ خصوصيات كل بلد بعين الاعتبار.

لاشك ان اغلب دول العالم الاسلامي دول متعددة اللسان. ففي المغرب العربي لغتان محليتان الامازيغية والعربية، وفي العراق وسوريا العربية والكردية وبعض اللغات الاخرى، وفي تركيا خليط من اللغات فهناك التركية والكردية والعربية والاذرية وغيرها، وفي باكستان الاوردية والبنجابية، وفي افغانستان الفارسية والاوردية. هذا الفسيفساء اللغوي والقومي في ظل غياب العدالة الاجتماعية، والوعي الحضاري الواحدى يمكن ان يكون عاملا من عوامل تهديد الامن القومي، وزعزعة الاستقرار.

ولقد حدث هذا فعلا، فاستقلال بنغلادش عن باكستان كان راجعا في جزء مهم منه الى قرار محمد على جناح بجعل الاوردية اللغة الرسمية للبلاد وشكل هذا ضربة للاحساس القومي لسكان البنغلادش الذين يتكلمون اللغة البنغالية. كما ان الجزائر لا زالت تعاني سياسيا وامنيا من المشكل اللغوي بين سكان منطقة القبائل ذوى اللسان الامازيغى والدولة التي اقرت العربية لغة رسمية للبلاد، اما العراق فقد اتسع خرقه على الراقع وظهرت اهمية المكون اللغوي في التحول السياسى، كما ان اوضاع هذا البلد العظيم تجعلنا على وعى باهمية وضع سياسات لغوية معتدلة ورشيدة من خلالها نستطيع تشجيع الوحدة من خلالها التنوع والتنوع من خلالها الوحدة.

٩- السيادة اللغوية في شمال إفريقيا نموذجًا:

يضم شمال إفريقيا شعوبا تجمعها خصائص مشتركة ولعل أهمها اللغة، فلسان المنطقة الاصلى هو الامازيغية وليس البربرية كما هو شائع فى التداول لما فيها من التحقير للامازيغ أو الاحرار. وهى لغة كنعانية تنتمى الى الاسرة اللغوية السامية. ولعلها كانت لغة الشعوب الكنعانية التى استوطنت شمال افريقيا وجزء كبيراً من اوروبا بما فى ذلك اسبانيا وفرنسا. ويشير ابن خلدون الى ان الشعب الامازيغى شعب ذو حضارة عظيمة ويكفى ان تكون حواضر الشمال الافريقى مراكز للعلم والتجارة فى عصور ما قبل الميلاد وبعده، كقرطاجة وطنجة وموغازور او الصويرة الحالية. وسواء كان سكان الشمال الافريقى ذوى اصول اوربية كما يدعى مؤرخى الغرب، او كانوا كنعانيين كما تؤكد ذلك دراسات تاريخية اخرى، فان الراجح ان الحضارة الامازيغية الكنعانية لم تتوقف عند حدود افريقيا بل تجاوزت ذلك الى اوروبا. ولعل اسماء المدن فى فرنسا شاهدة على اصلها الكنعانى، كليون، وباريس، ومالقة وغيرها. وبسبب هذه الحضارة العظيمة رفض اهل المغرب اى سيطرة اجنبية، ويحكى تاريخ الكنعانيين فى صور، او قرطاجة او طنجة، قصة شعب لا يقبل ان يهيمن عليه، ولهذا فشل الرومان وقبلهم الوندال فى احكام السيطرة على المنطقة، وحتى المسلمون لم يستطيعوا اخضاع المغرب الا بعد منحهم السيادة على انفسهم ويلاحظ ان المغرب الاقصى مثلاً ظل مستقلاً عن كل الخلاقات الإسلامية المتعاقبة بحيث لم يخضع للامويين ولا للعباسيين ولا للعثمانيين. وهو ما يعنى ان قبول اهل المغرب للإسلام والعربية كان نابعا من احساس كبير بالخصوصية، ولقد استمر هذا الاحساس ولا زال مستمرا فى اشكال ثقافية مقنعة ولعل أهمها المنافسة المغربية المكشوفة فى مجالات الثقافة والابداع.

١. حركة التعريب في شمال إفريقيا:

من اهم الاسئلة المطروحة فى مجال عربية المغرب السؤال المتعلق بسبب بقاء اللغة الامازيغية قوية الى جانب اللغة العربية، بحيث لم يحدث فى المغرب ما حدث فى مصر والشام حيث نجحت حركة التعريب الشامل للمنطقة لتموت بذلك لغاتها وثقافتها لصالح الثقافة الغالبة وهى الثقافة العربية، كما لم يحدث فى المغرب ما حدث فى بلاد فارس وما وراءها من اسلمه بدون تعريب ولعل الاجابة تكمن فى ما سبق وان اشرنا اليه قوة الانا الحضارية عند الامازيغ، بالاضافة الى تضاريس المغرب الاوسط والاقصى وهى تضاريس جبلية حافظت على نوع من الاستقلال الجغرافى واللغوى للسكان الاصليين، وهو ما يفسر نجاح التعريب شبه الشامل فى تونس.

بعد وصول العرب الفاتحين للمغرب، كانت المنطقة تعرف نوعا من الازدواجية اللغوية، فالامازيغية هى لغة العامة، واللاتينية هى لغة النخبة من المتعاملين مع الرومان ولم تستطع الرومنة أو التلتين تحقيق أى نجاح يذكر نظرا للعداء المستحكم بين الرومان والبربر، فى الوقت الذى نجحت فيه عملية التعريب بشكل تدريجى.

ويبدو أن المحاولات الأولى للتعريب قد فشلت بسبب المقاومة الثقافية العنيفة التى نهجها أهل الغرب فى مواجهة هيمنة الأرستقراطية العربية فى المدن. ويفسر هذا تكون صورة نمطية للبربر لدى العرب أساسها التحقير والرغبة فى الهيمنة، فلغتهم فى تصور أحد المؤرخين بربرية تمتلئ رطانة بلا إفادة^(١)، أما ياقوت الحموى فقد ذكر أن " البربر أجفى خلق الله وأكثرهم طيشاً، وأسرعهم إلى الفتنة أطوعهم لداعية

(١). تاريخ ابن خلدون ج ٦/١٨٥

(١). عن : محمد حسن، الأصول التاريخية للتعريب فى المغرب العربى، فى : تطور الوعى

فى المغرب العربى، سلسلة كتب المستقبل العربى رقم ٨، مركز دراسات الوحدة

العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٦، ص : ١٢٢

الضلال، وأصغاهم لنمق الجهالة، ولم تخل جبالهم من الفتن وسفك الدماء قط، بل أن آدم تبرأ من أنتسابهم إليه:

رأيت آدم فى نومي فقلت له
أنا البربر نسل منك قال أن
أبا البرية إن الناس قد حكموا
حواء طالقة إن كان قد زعموا^(١)

ولو نظرنا للنص هنا من منظور تحليلي نقدي لوجدنا أن الحموى هنا يلخص الصورة التي يريد خطاب السلطة في المشرق تكوينها عن المغرب، فقله أنهم أجفى الخلق اعتراف منه بصلابتهم وقوة شكيمتهم، وكثرة الطيش دليل على حبهم للمواجهة التي قد تودي بحياتهم بدل العيش بسلام مع انعدام سيادتهم على أرضهم، وسرعتهم إلى الفتنة مؤشر على تصميمهم على العصيان والتمرد، وطاعتهم للضلالة دليل على انقيادهم لجهة المعارضة سواء كانت علوية أم خارجية.

وللتدليل على ان الصراع لم يكن دينيًا بل كان قوميًا وثقافيًا أن كثيرا من العرب قد لجأوا الى وضع أحاديث على لسان النبي الكريم تحط من قدر الأمازيغ وتصنفهم بأرذل النعوت، فلجأ البربر أنفسهم إلى ذات الآلية فوضعوا أحاديث نبوية في فضلهم وأن الدين سيعزبهم^(٢) مما يشير إلى أن البربر قد قبلوا الإسلام ولكنهم لم يقبلوا الهيمنة العربية إلا في وقت متأخر جدا حينما أسس البربر ممالك قوية في شمال أفريقيا والأندلس واختاروا راضين أن يكون اللسان العربي لسانهم، لتبدأ بذلك رحلة التعريب الموقفة والخالية من مشكل التنافس القومي، وهكذا فإن الوضعية اللغوية للمغرب العربي في العصر الحاضر تعكس الإنسجام التاريخي بين العرب والبربر ظهرت في التزاوج والتساكن بل إن هناك قبائل عربية تمزغت بالكامل، وقبائل أمازيغية تعربت

(٢). راجع في مثل هذه الأحاديث : الحموى، معجم البلدان، ج ١/٥٤١-٥٤٣

بالكامل وظهر هذا الإنسجام التاريخى فى مواجهة الظهير البربرى الذى حاولت به
الإرادة الإستعمارية التفريق بين العرب والبربر.

بـ- السياسة اللغوية ومفصل توحيد اللغة :

لا شك أن عملية التوحيد اللغوى فى شمال إفريقيا قد نجحت بالكامل، وإن ظل
اللسان الأمازيغى حاضراً بقوة، إلا أن الوضع النفسى للإنسان الأمازيغى يشير لى
إنتمائه الحضارى والقومى للأمة العربية. إن فكرة التوحيد اللغوى تشبه فى خطورتها
العولمة التى تتادى بتوحيد أنماط الحياة ومعيرة القيم وفقاً لتصورات الأقوياء. ومع ان
دول المغرب العربى وخصوصا المغرب قد فطنت لجدوى إعتماذ سياسة لغوية
منفتحة، ومع ذلك فإننا نلاحظ أن ثمة أخطاء يمكن تجاوزها فى السياسة اللغوية
بالمغرب والجزائر. ونذكر منها :

- الإصرار على البعد القومى للعروبة، بإستثناء المغرب الذى ظلت السلطة فيه
تؤكد على البعد الدينى للعروبة، ومن هنا يمكن تفسير شدة التلاحم بين
العرب والبربر فى المغرب مقارنة بالجزائر التى كان البعد القومى فيها
ضعيف الصلة بالدين نظراً للطابع الإيديولوجى لسلطة مابعد الإستقلال.
- إنعدام أى إشارة إلى اللغة الأمازيغية والثقافة المحلية فى الدستور. مما جعل
تأسيس الجمعيات ذات الخلفية الإثنولغوية تواجه عراقيل متعددة.
- غياب أى تشجيع رسمى للغة الأمازيغية، ولقد حاولت الحكومة الجزائرية
والمغربية تجاوز هذا المشكل بتبنى تدريس الأمازيغية فى المدارس.
- الربط الميكانيكى والسطحى بين المناداة بالحقوق اللغوية وتفتيت الوحدة
الوطنية. ولتجاوز هذه المشكلات نقترح الأتى :
- الإعراف بالحقوق اللغوية للأمازيغ وحريتهم فى إستعمال لغتهم وكتابتها
تدريسها وتطورها.
- تشجيع الجمعيات الأمازيغية ذات البعد الثقافى.

- عدم تسييس المسألة الأمازيغية لما فى ذلك من خلق الشقاق بين مكونات المجتمع العربى، وكذا تهديد الأمن القومى للدول العربية.
- تشجيع البحوث الأكاديمية فى هذا المجال لقطع الطريق امام من يريد إستغلال المسألة الأمازيغية لأغراض غير ثقافية
- التسلح بالشجاعة الفكرية وفتح نقاش جدى حول إعادة النظر فى مكونات الهوية الثقافية للمغرب العربى.

١٠ - المسألة الصحراوية :

تختلف الدراسات الإثنوغرافية حول أصول الأكراد، فمن قائل أنهم ذوو أصول إيرانية ومن قائل إن أصولهم عربية ولكنهم نزحوا إلى الجبال فاستوطنوها ^(١) وهذه الأطروحة لا تختلف من حيث أهدافها عن أطروحة عروبة الأمازيغ ونزوحهم إلى الشمال فى إفريقيا من الجريدة العربية ^(٢)، ومن المؤرخين المسلمين من أشار إلى الأصول الفارسية للأكراد ^(٣)، كما أن هناك أطروحة مفادها أن الأكراد من الشعوب الهندأوروبية. وأيا ما كان أصل الأكراد فهم بلا شك شعب مميز بسمات خاصة تجعل هويته ذات وجه واقعى. ولعل اللغة الكردية من أهم هذه السمات وأوضحها. ولقد تعرض النسيج القومى للأكراد إلى نوع من التمزق العشوائى بين هويات قوية تاريخيا وثقافيا وهى: الهوية العربية والهوية الفارسية ثم الهوية التركية، ولهذا وبعد انقراط عقد الخلافة الإسلامية وتأسيس الدول القطرية وجد الإكراد أنفسهم مقسمين بين دول قطرية كبرى كإيران والعراق وتركيا وإلى حد ما سوية ولبنان.

(١). المسعودى، مروج الذهب، ج ٢ / ٩٩، ط ١، ١٩٦٥، دار الأندلس بيروت.

(٢). فى عروبة الأمازيغ: راجع : محمد على مادون، عروبة البربر، المنظمة العربية

للتربية والثقافة والعلوم ١٩٩٢، ومحمد مختار العرباوى، فى مواجهة النزعة البربرية

وأخطارها الإنقسامية، دار نقوش عربية، تونس ١٩٩٨

(٣) راجع المسعودى، مروج الذهب.

ولعله يمكن التأريخ للوعى القومى الكردى ببداية القرن التاسع عشر، بدأ يظهر نوع من النزوع نحو تحديد القومية الكردية وضبط معالم هويتها، ومع أن الشعب الكردى شعب طاعن فى التاريخ من حيث الوجود، فإن إحساسه القومى بالمعنى الحديث للقومية لم يظهر إلا فى مراحل متأخرة فى التاريخ وتحديدًا فى القرن التاسع عشر. فحينما حاولت الدولة العثمانية إعادة ضم أقاليم كردية إلى نفوذها عد هذا خرقاً للمعاهدة التى وقعتها الأمير الكردى شرف الدين البدلسى مع الخليفة العثمانى سليمان القانونى. كما أن الاشتغال الفعلى للوعى القومى الكردى يمكن عزوه إلى ثورة عبيد الله النهري فى شمال كردستان والتى إنتهت بمقتله عام ١٨٨٣^(١)، ومع أن هذه الثورة لم تحقق أهدافها إلا أنها عادت الطريق أمام ثورات كردية لم تتوقف طوال القرن العشرين ولعل من أواخرها إنتفاضة ١٩٩٢ ضد الحكومة العراقية والتى أدت إلى إنشاء المنطقة الآمنة شمال العراق. ولعلنا نستطيع الإدعاء بأن الشعب الكردى وهو الشعب العميق فى تدينه وإسلامه لم يكن مندفعاً أشد الإندفاع نحو تأسيس القومية الجغرافية، ويمكن تفسير نمو الحس القومى والإنفصالى لدى الأكراد بما يلى:

- قوة المد القومى العربى و التركى و الفارسى، فالأول إنتهى بالإنفصال عن الخلافة العثمانية، وثانياً بتأسيس أنظمة سياسية عروبية ذات إيديولوجية قومية كالعراق وسوريا. والثانى إنتهى بتأسيس الدولة التركية الحديثة بعيداً عن أى أساس إسلامى أو عمق دينى، ولهذا فإذا كان من الطبيعى أن يندمج الأكراد فى كيان سياسى ذى بعد دينى شامل، فمن المستغرب حقاً أن يطالب هذا الشعب بالخضوع لقوميات غير دينية لا تمتاز عن قوميته الخاصة. ومن هنا كانت الصحوه القومية الكردية رد فعل طبيعى على الإنبعاث القومى فى مناطق الجوار.

(1). See, Robert Olson, 1991, the emergence of Kurdish Nationalism 1880-1925 1st ed , University of Texas Press , p1

- خضوع الأكراد لأنظمة قومية مارست نوع من القهر السياسى، وحاولت تعليب كل الإثنيات فى بوتقة القومية الغالبة، هذا ما يفسر الخلاف الجوهرى بين الأكراد والأمازيغ فى شمال إفريقيا، ففى حين يبرزح الأكراد تحت أنظمة شمولية، فإن الأمازيغ فى المغرب العربى هم حملة لواء التعريب، والمدافعون عن قيم العروبة، والسبب أنهم لم يخضعوا لأنظمة إستبدادية شبيهة ببعض الأنظمة فى المشرق العربى.

١١- اللغة الكردية فى السياسة اللغوية فى العراق :

تعد اللغة الكردية من فروع عائلة اللغات الهندوأوروبية^(١) وتتفرع إلى لهجتين أساسيتين :- كورمانجى وسورانى، واللذان بدورهما تتفرعان إلى لهجات محلية متعددة. والملاحظ أن سياسة التعريب التى اتبعت فى المنطقة الكردية لم تكن ناجحة حيث ظلت اللغة الكردية لسان الأكراد ولم تتجاوز اللغة العربية مستوى كونها لغة التخاطب الرسمية أو لغة التعليم، اما أن تتحول العربية إلى اللغة الأولى للأكراد لم يحصل هذا إل فى بعض الأوساط الكردية المدينية ذات الصلات الواسعة بالعرب. ولقد كان بالإمكان للتعريب أن ينال حظا من النجاح لو تم إنتهاج سياسة لغوية عادلة تقوم على ركنين :-

- الإعتراف بالحقوق اللغوية ضمن مفهوم شامل للوحدة الوطنية حيث يعترف للأكراد بحقوقهم المساوية لغيرهم من العرب، كما يعترف الأكراد بحق وطنهم فى البقاء موحدا فى إطار سياسى منسجم. ويلزم عن هذا تشجيع تعليم اللغة الكردية، وتحويلها إلى لغة رسمية للدولة جنبا إلى جنب مع اللغة العربية.

- الإبتعاد عن إعطاء بعد تبشيري للقومية سواء من جهة الأكراد أو غيرهم، لأن تحويل القومية الكردية إلى إيديولوجية سياسية ستؤدى إلى إنقسامات

(1). The new encyclopedia Britannica 1998. 15th ed.USA. Vo17.P40

سياسية كبيرة لم يستعد أحد لتحمل تبعاتها بعد سواء الأكراد أم غيرهم، كما
ان تحويل القومية العربية او التركية إلى أيديولوجية من قبل الدولة سيؤدي لا
محالة إلى الإستبداد والهيمنة.
